المصريون والمحافظة على القديم

يقال عن المصريين إنهم من أشد الأمم محافظة على القديم . فالمدنية المستقرة نشأت فى بلادهم منذ أقدم العصور ، بل هى قد تكون فى مصر أقدم منها فى أى بلد آخر ؛ ومع ذلك فقد سارت الحياة على وتيرة واحدة أو وتائر متقاربة متشابهة من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر ، قد توارث الناس مقومات الحياة وأسس الحضارة والمدنية ، واحتفظوا بتقاليدهم وعاداتهم ، بل حافظوا عليها ودافعوا عن قديمها ، فلم يستهوهم التغيير ولم تغرهم النزعة إلى التجديد . وكثيراً ما يكتب الكاتبون ويقرأ القارئون أن الفلاح اليوم يعيش ويفلح الأرض كما كان أجداده يفعلون أيام الفراعنة ، بل قبل أن يطلع فجر التاريخ ؛ فالحاضر فى مصر صورة منعكسة من الماضى ؛ والأيام تمر فى مصر ولكن الحياة لا تسير ، وإنما هى ثابتة على أصولها لا تتحول ولا تتبدل ؛ والسنون بل القرون يتداعى بعضها إثر بعض فى وادى النيل ، ولكن الحضارة الزراعية المصرية لا تتحور ولا تتطور . فاليوم أمس متكرر ، والغد لا يعدو أن يكون يوما من أيام الحاضر ، فهو أمس ينشر قبل أن يموت !

على أن هذا الكلام إن كان صحيحا فى بعض نواحيه ، فإنه مع ذلك لايكاد يثبت للبحث العلمى الصادق ؛ لأنه لايمثل غير صورة منقوصة من الحقيقة . وقد يكون من المفيد أن نحاول فى هذا المقال أن نلم بطرف أو أطراف قليلة ندلل بها على أن استمرار الحياة والحضارة فى مصر لم يكن معناه الجمود ، ولم يكن مرده فى كل الحالات ، بل ولا فى غالبها ، إلى نزوع المصريين إلى المحافظة على القديم . فنحن إن سلمنا بهذا القول على عِلاّته وجب أن نسلم بأن البيئة المصرية بيئة عقيمة ، ولدت مرة ثم أصابها العقم والإجداب بعد ذلك ؛ بل وجب أن نسلم بأن روح مصر وإن بقى حيا لم يمت ، فإنه روح خامل ، قد قنع أصحابه من الحياة بما نفح الله فيهم أول مرة ، فهم لم يتعدوا فى آخر مراحل تاريخهم

ما بلغوه فى أولى مراحله ، بل هم لن يجاوزوا فى آخر الدهر ما كانوا عليه فى فجر التاريخ . . . وهم إن استطاعوا ذلك فلن يكون تجاوزهم إلا على قدر معلوم !

الواقع أن البيئة فى مصر من ذلك النوع الذى يكرر نفسه فى نظام فعلى عجيب . فالنيل يرتفع وينحسر فى كل خريف ، والفيضان يجدد ثروة الأرض فى كل عام ، والعمل الزراعى يتطلب نشاطاً معيناً لا يخرج عن نطاقه المرسوم متى قسمت الأرض إلى حياض ترويها الترع وتحدها الجسور ، وحياة الجماعات فى قرى الوادى ينظمها عرف عريق فى القدم ، قد وضعت اسسه ونواميسه الأولى عند ماتحول السكان من الحالة القَبَلية ، أى التى كانت فيها القبيلة وحدة المجتمع ، إلى الحالة القروية أى التى صارت فيها القرية نواة المجتمع . كذلك الاتصالات بين الجماعات فى جنوب الوادى وشماله حدثت كلها أو جلها عن طريق النهر وجسوره ؛ إذ مهدت الطبيعة لأن يتم التعارف بين الشمال والجنوب ، بل لأن تمتاز الحياة فى الوادى ودلتاه عنها فى غير مصر مما يقع فيما وراء الصحراء أوماوراء البحار . . . واستمتعت مصر خلال تاريخها الطويل بنوع من العزلة النسبية وراء دروع الصحراء ، فاستطاعت أن تحتفظ بطابعها الخاص بين الشرق والغرب ؛ وحفظ ذلك على مصر شخصيتها الحضارية المميزة ، وإن كان قد أظهرها فى أعين الباحثين بمظهر الجمود والثبات على القديم فى عالم كثر فيه الاتصال ، وصار من الصعب على أمة من الأمم أن تحتفظ بطابعها المميز فى الحياة والمدنية لأكثر من أجل معلوم . . . أما مصر فقد عاشت وعاش طابعها على الزمن ، على حين تتابعت ودالت من حولها أمم كثيرة فى أرض سومر وأرض بابل والجزيرة العليا وهضبة الحيثيين وأرض سوريا وفلسطين وجزائر أقريطش وإيجة وأرض اليونان والرومان . . . كل هذه مناطق نشأت فيها مدنيات قديمة ، ولكنها ماتت أو جرى عليها الزمن فطغت عليها معالم جديدة من المدنية المحلية أو الخارجية ، بخلاف مدنية مصر التى جمعت إلى القدم والعراقة دوام الاتصال والاستمرار . . . ولعل هذا أول ماحدا بفريق من الباحثين إلى أن ينسبوا إلى أهلها شدة التمسك بالقديم والثبات عليه .

على أن خير ما يعيننا على أن نحقق أكان المصريون محافظين على القديم أم مجددين ، أم آخذين من كل المحافظة والتجديد بطرف ، إنما هو أن نستعرض معالم حضارتهم التاريخية ؛ متتبعين عناصر الدوام والثبات من جهة ، وعناصر

التطور والتجديد من جهة أخرى ، مقسمين الحياة والحضارة المصرية إلى جانبيها الأساسيين : الجانب المدنى المادى ، وهو الذى يتصل على الخصوص بالزراعة ، والحياة الزراعية ، وما يرتبط بهما من نشاط واقتصاد قومى عام ؛ ثم الجانب الفكرى والروحى ، وهو الذى يتصل بالثقافة المصرية ، وما امتازت به من طابع أو طوابع معينة خلال أعصر التاريخ .

فأما عن الجانب الأول فمعروف أن الزراعة كانت عماد الحياة والمدنية فى مصر منذ البداءة ، وقد بقيت كذلك حتى يومنا هذا ؛ وأغلب الظن أنها ستبقى كذلك فى قابل الأيام ، رغم ماينتظر من ازدهار بعض الصناعات فى التعدين أو الإنتاج الصناعى الحديث . على أن الشئ المهم والذى ينبغى أن نلحظه ونسجله هو أن الزراعة فى مصر لم تكن فى يوم من الأيام زراعة فطرية من ذلك النوع الذى نلحظه فى بعض جهات إفريقية الداخلية مثلا ، والذى يعتمد على المطر ، فيحفر الزارع حفرة صغيرة يضع فيها الحب ثم يتركه للأمطار تغذيه حتى موسم الحصاد . وإنما الزراعة فى مصر كانت منذ الألف الرابعة قبل الميلاد على الأقل معتمدة على فلاحة الأرض التى يغمرها الفيضان ؛ وقد اتصلت من أجل ذلك بأعمال هندسية تمثلت فى إقامة الجسور ، وحفر الترع ، وتنظيم جريان الماء إلى الحياض وانصرافه عنها إلى النهر بعد أن يرسب غرينه ؛ وتلك كلها عمليات كبرى تحتاج إلى هندسة وتعاون وتنظيم . لذلك لم يكن ممكناً للزارع المصرى أن يعمل بمفرده ، ولا أن يفلح أرضه مستقلاً عن جاره ؛ وإنما كان عليه أن يعمل كفرد فى مجموعة من الزارعين الذين يتعاونون فى عمل زراعى هندسى ، هو الأساس الذى قامت عليه مدنية مصر الزراعية ، وامتازت به على غيرها من المدنيات الزراعية الفطرية التى لم ينته بها الأمر إلى قيام مجتمع زراعى معقد النظام ، كما حدث فى وادى النيل الأدنى . ولذلك كله نشأت المدنية الزراعية فى مصر معقدة منذ فجر التاريخ ، وربما كانت قبل ذلك . بل إن من الجائز أن نقول إن ظهور الوحدة السياسية وبروز الأسرات الحاكمة إنما قام فى الأصل على أساس من المصلحة المادية المشتركة لسكان الوادى ومزارعيه ؛ فكان فرعون ورجال حكومته الإقليمية هم القوّامين على مشروعات الرى ، وتنظيم الجهود الإجماعية المتصلة بالزراعة ؛ بل كان فرعون مهندس الرى والزراعة الأول فى ذلك العصر ، إن جاز لنا أن نستعير مثل هذا التصوير . وبذلك كله اكتملت لمصر

عناصر الحياة المادية التى يتداخل فيها الاقتصاد القومى بالإدارة الحكومية ؛ وهو أقصى درجات التقدم والتعقيد فى نظام المجتمع ، بل هو ماتأخرت فى تحقيقه عن مصر أمم كثيرة ، ننظر إليها الآن على أنها تمثل أرقى الأمم وأبعدها أخذاً بوسائل التجديد ! وقد يبدو عجيباً أن تكون مصر قد احتفظت باقتصادها القومى الموجه خلال أعصر التاريخ ، وأنها لم تحد عن كثير من نظمها الزراعية فى الرى والإنتاج وما يتصل بهما من تنسيق جهود الفرد والجماعة منذ اكتملت وحدتها الحكومية فى أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد . ولكن هذا العجب لا يلبث أن يزول إذ نلحظ أن البيئة فى مصر هى من ذلك النوع الذى يقضى بالوحدة والتنظيم والتنسيق الدقيق ، والذى يغلب جهود الأفراد بل الجماعات البشرية متفرقة ولا يخضع لها إلا مجتمعة . وقد يكون هذا هو السر فى أننا كنا خلال تاريخنا كله شعباً يسلس تنظيمه وتنسيق جهوده بل قيادته متى وجد الحكم الصالح . . . فقد تعلمنا ذلك فى ميدان الزراعة ، ومن صلتنا بنهر النيل أول الأمر ؛ ثم انطبع ذلك فى نفوسنا ، فهو يتمثل فى عمل المجموعات الصغيرة من الأفراد والعمال حين يجتمعون فيعملون معاً ، ويحتاج الأمر إلى رئيس أو «خولى» لايساهم فى العمل الفعلى ، ولكن وجوده وقيادته ضروريان لإنجاز العمل ؛ كما يتمثل أيضاً فى الإدارات القروية والحكومات المحلية ، ثم الحكومة المركزية العامة . ولعل احتفاظ المصريين بهذه الخاصة التى جبلتهم عليها طبيعة بلادهم ونوع الزراعة المعقد الذى مارسوه من أول الأمر ، هو الذى أظهرهم فى أعين الباحثين ممن لا يتعمقون الأمور بمظهر المحافظين على القديم ، المستكينين للعرف والتقاليد ، مع أن كل ماحدث هو أن مجموعة من النظم الاجتماعية والاقتصادية نشأت فى البيئة المصرية وكانت صالحة للبقاء ، بل ضرورية لحياة المجتمع وتنظيم نشاطه ، فبقيت وعمّرت ، بل أصبحت مقياساً لازدهار الحياة فى مصر ؛ ففى الأوقات التى استمسكت فيها مصر بنظمها الحكومية التى تستند إلى الوحدة المحلية فالوحدة الإقليمية فالوحدة القومية الشاملة ، ازدهرت الحياة فى وادى النيل ، وبلغت هذه الأمة شأو قوتها ؛ وفى الأوقات التى انصرف فيها الناس عن النظام والتضامن التقليديين انحلّت عرى المجتمع ، ودخلت مصر فى عهد من عهود الإقطاع المظلمة ، وبقيت كذلك حتى يبعث الله الوحدة ، فيعاود المجتمع سيرته الأولى ، وتعود إليه الحياة والقوة من جديد .

ومع ذلك ففى ميدان الزراعة والنشاط الزراعى فى ريف مصر نستطيع أن نميز بين ثلاثة أشياء : أولها وسائل الزراعة والرى ؛ وثانيها أنواع النباتات والمحاصيل الزراعية ؛ وثالثها الحيوانات المستأنسة والمستخدمة فى الزراعة . وفى كل من هذه الأشياء الثلاثة نستطيع أن نتبين مبلغ تمسك المصريين بالقديم أو سعيهم إلى التجديد . وقد كان المصريون أول الأمر يفلحون الأرض بوساطة فؤوس حجرية ينقرون بها الثرى بعد انحسار الفيضان مباشرة ، ثم اكتشفوا استعمال المحراث فى أواخر الدولة القديمة (الأسرة الخامسة على الأقل) ، وكان فى أول الأمر يشبه الفأس الحجرية القديمة ، ثم تطور فى شكله حتى صار له سلاحه المعدنى المعروف . ومع ذلك فمن الطريف أن نلحظ أن ظهور المحراث لم يؤد إلى اختفاء الفأس ، وإنما سار الاثنان جنباً إلى جنب ؛ حتى فى عهدنا الحديث نرى الفلاح يستخدم الفأس والمحراث القديم ، وبعض المحاريث الآلية الحديثة فى المزارع الكبيرة ؛ وكثيراً ما يستخدم آلتين أو أكثر من هذه الآلات فى الزرعة الواحدة ، فيحرث أرض القطن مثلا حرثتها الأولى بمحراث آلى ، ثم يعيد حرثها بمحراث قديم ، ثم ينقر الأرض للزراعة ووضع البذور بوساطة الفأس . وفى هذا كله يتجلى كيف أن ظهور آلة جديدة لم يقض على ما سبقها من آلات ؛ وإنما كانت الوسائل والآلات يضاف بعضها إلى بعض ؛ وفى هذا معنى للاحتفاظ بالقديم احتفاظاً لا يمنع من التجديد . وقد تمثل هذا بعينه فى آلات الرى وأدواته ؛ فهناك الشادوف ، ولا بد أنه من أقدم الآلات ، ثم هناك الساقية وهى شادوف آلى معقد يدار بالقوة الحيوانية ، ثم هناك آلة أرشميد أو « الطنبور » وقد ظهرت فى العهد الإغريقى الرومانى ، ثم أخيراً هناك الآلات الرافعة الحديثة ؛ ومع ذلك نلحظ فى مصر استمرار هذه الآلات والأدوات جميعاً ؛ لأن الجديد فى مصر لا يمحو القديم ولا ينسخه ، خصوصاً إذا كان القديم ملائماً لنوع معين من الزراعة ، كما هى الحال فى الشادوف ، فهو آلة مناسبة جداً لرى المساحات الصغيرة والجسور الضيقة على حافات الترع وجنبات النيل ، حيث لا يجدى غيره من الآلات .

ومثل هذه الظاهرة نلحظها أيضاً فى المزروعات والمحاصيل . فقد زرع المصريون أول ما زرعوا الشعير والقمح ، وهما محصولان شتويان مناسبان جد المناسبة للبيئة المصرية ؛ إذ يزرعان فى الخريف ، أى عقب انحسار الفيضان

مباشرة ، ويستمران فى الأرض حلال أشهر الشتاء أى فى موسم الأمطار الشتوية ، وينضجان فى أواخر الربيع . ويقال إن الشعير البرى ينمو بطبيعته فى شمال إفريقية الشرق وشرقها ؛ فلا بد انه استنبت فى ذلك الإقليم لأول مرة . أما القمح فمن الجائز أن يكون استنباته بدأ فى جهة أو أكثر من جهات الشرق الأدنى والأوسط ثم أدخل إلى مصر . وسواء أصحت هذه الآراء أم لم تصح ، فإن مصر عرفت الشعير والقمح منذ العصر الحجرى الحديث ، أى منذ أواخر الألف السادسة قبل الميلاد . وبعد ذلك استنبتت نباتات أخرى من بقول الشتاء وأفواله ، وكذلك الكرم والزيتون وغيرها من مزروعات حوض البحر المتوسط . كما أن مصر كانت تضيف باستمرار إلى ثروتها النباتية والزراعية خلال تاريخها الطويل ، فدخلتها على الخصوص محاصيل الجهات الدفيئة والحارة من الشرق الآسيوى (جنوب آسيا وجنوبها الشرقى) ، ومنها قصب السكر والقطن ، اللذين لم يتوسع فى زراعتهما إلا فى القرن الأخير ! وكذلك الأرز والبرسيم ، وقد اتسعت زراعة الأول عقب إدخال الرى الصيفى ، أما الثانى فقد عرف منذ بضعة قرون ، وكان لإدخاله أثر كبير فى ثروة مصر الحيوانية من جهة ، وفى تغذية التربة وتجديد قوتها من جهة أخرى . كذلك أدخلت إلى مصر محاصيل أخرى من العالم الجديد بعد استكشافه ، أهمها من غير شك الذرة البيضاء ، التى لم تعرفها مصر قبل قرن ونصف قرن من الزمان ؛ ومع ذلك فقد صارت الآن ، وبفضل الرى الدائم ، الغذاء الأساسى للفلاح ؛ وربما كان هذا من شر ماجرته علينا الثورة الزراعية الحديثة . فقبل إدخال هذه الذرة كان القمح هو الغذاء الأصلى للفلاح ، وهو بالطبع غذاء أصلح وأوفى . بل قد لا نكون مغالين إذا ما نحن قررنا أن الفلاح المصرى فى العهد الفرعونى وخلال القرون الوسطى كان يحصل على غذاء أفضل مما يحصل عليه الآن . . . ومن يدرينا ! فقد يكون اختلاف التغذية وضعفها فى العهد الحديث من أسباب ما نلحظ من اضمحلال فى حيوية الفلاح وضعف فى قواه الإنتاجية ، فى وقت تعرّض فيه أيضاً لكثير من الأمراض الطفيلية الناتجة عن إدخال نظام الرى الدائم .

المهم من كل هذا أن الريف المصرى قد تطور فى مظهره تطوراً شاملا خلال أعصر التاريخ ، فتواردت المحاصيل ، وبعضها من إفريقية وبعضها من

آسيا ، وبعضها الآخر من العالم الجديد ؛ وهى محاصيل كثيرة لا سبيل إلى حصرها فى مثل هذا المقال [1] . وقد زاد من مقدرة مصر على إنتاج هذه الأنواع جميعاً اعتدال مناخها وإدخال نظام الرى فى أشهر الربيع والصيف ، مما يسّر نمو المزروعات على طول العام . ولو أن فلاحاً مصرياً من عهد الفراعنة بعث اليوم فى الريف المصرى فى أشهر الصيف لهاله ما يرى من اختلاف مظاهر البيئة فى كل شئ . فالحقل المصرى من هذه الناحية قد أصابه من التطور والتغيير ما غير معالمه الأولى تغييراً كاملا شاملا ، لاسيما فى أراضى الدلتا الفسيحة ، حيث لامجال إطلاقا لأن يتحدث متحدث عما يمكن أن نسميه محافظة على القديم ؛ اللهم إلا إذا اعتبرنا احتفاظ مصر بأنواع صالحة من محاصيلها القديمة كالشعير والقمح محافظة على القديم .

ومثل هذا تكرر فى حالة الحيوانات المستأنسة والزراعية . فقد كانت الثروة الحيوانية فى تجدد دائم ، وأضيفت إليها أنواع جديدة دخلت أو أُدخلت من الجنوب أو من الشرق أو من الغرب فى أعصر متتابعة . فعرف المصريون الأولون البقر الإفريقى ذا القرون الكبيرة المقوسة ، عرفوه فى الألف السادسة قبل الميلاد ، و ستمر فى مصر حتى قل ثم انقرض فى أواخر العهد الفرعونى أو فى أعقابه على مايظهر ، ولو أنه لا يزال سائداً فى السودان . ثم عرف المصريون البقر الآسيوى ذا القرون الصغيرة المستقيمة فى آخر الدولة القديمة وحل بالتدريج محل البقر الإفريقى ، وصار الآن هو السلالة السائدة فى البلاد . أما الجاموس فحيوان حديث جداً فى البيئة المصرية ؛ ذلك أن السلالة الإفريقية منه لم تستأنس على الإطلاق ، ولا تزال تعيش وحشية فى أعالى النيل ؛ أما السلالة المستأنسة فآسيوية وصلت إلى مصر من الهند عن طريق إيران والشرق الأوسط فى أواخر القرون الوسطى اى حوالى القرن السادس عشر على مايظهر . فالجاموس المستأنس لم يكن معروفاً فى مصر الفرعونية ولا مصر العربية الأولى ؛ رغم ما قد يبدو فى ظاهر هذا القول من غرابة ، ولا يزال عدد الجاموس إلى اليوم أقل قليلا فى ثروة مصر الحيوانية من عدد البقر . أما

---

(١) هناك أنواع مختلفة من الخضر كالطماطم والبطاطس وغيرها وكذلك من الفواكه الدفيئة كالبرتقال والموالح والموز والمانجو وغيرها ؛ وكلها أدخلت إلى مصر فى أوقات مختلفة .

الأغنام والماعز فقد عرف المصريون الأقدمون منها سلالات مختلفة ، يقال إن بعضها إفريقى شمالى وبعضها الآخر آسيوى . كما عرفوا الخنازير ، ومنها سلالة إفريقية شمالية ، ربما كانت بداية استئناسها فى مستنقعات الدلتا فى الألف السادسة قبل الميلاد أيضاً ؛ ثم سلالة أسيوية هندية أُدخلت فى عهد الإغريق والرومان . . . ثم قلّت تربية الخنازير حتى كادت تنقرض فى العهد الاسلامى .

ومن دواب الحمل عرف المصريون الحمار فى الألف الخامسة أو الرابعة قبل الميلاد ؛ ويقال إن موطنه الأصلى شرق إفريقية أو غرب أسيا أو الاثنين معاً وما جاورهما من داخلية أسيا . والمهم أن هذا الحيوان الخدوم عاصر الحضارة المصرية فى أدوار تكوينها الأولى ، واستمر حتى يومنا هذا ، وكان له دور خطير فى النشاط الزراعى فى الحقل والقرية على حد سواء ، ولم يزد تقدم الزراعة وتنوع المزروعات ثم ظهور الثورة الزراعية الحديثة ، همية هذا الحيوان ونصيبه من الكدح والجهاد إلا تأكيداً ؛ فهو حيوان نافع فى حمل الأثقال كما هو نافع فى الانتقال الريفى . ويظهر أن المصريين الأقدمين استخدموه فى الغرض الأول دون الركوب ، ثم تعلموا بعد ذلك أن يمتطوه ، وكان طيّعا فى الحالتين ! حتى إذا ما جاء العهد الحديث والرى الدائم ، وظهرت حاجة التربة المصرية إلى التسميد ونقل الأتربة بين الحقل والقرية وبين القرية والحقل ، نهض الحمار بهذا الحمل الذى لولاه ما احتفظت التربة بخصبها وقوتها . والحق أن واجب الاعتراف يقتضينا أن نذكر لهذا الحيوان فضله ومكانته فى البيئة المصرية . وليس بمستكثر أن يضيف الباحث أنه لولا وجود هذا الحيوان فى بيئتنا لنقص تلك البيئة شئ كثير . ولو قد أتيح لهذا الأخرس أن ينطق لأفصح عن معاونته الخطيرة فيما بنته يد الإنسان ، ولتحدث عن غير قليل مما سبق إليه من فضل على الناس ! أما الحصان فجاء متأخراً ، ولم يعرفه المصريون إلا أيام الهكسوس ثم فى الدولة الحديثة . وهو حيوان أسيوى ، موطنه وسط أسيا . استؤنس فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، ودخل مصر حوالى عام ١٧٠٠ ق . م . ، ثم ظهرت فصيلته العربية قبل الإسلام بقرون ؛ وادخلت إلى مصر مع سائر البلدان المجاورة للبادية العربية . وقد كان للحصان فضل مشهور فى حروب مصر وفتوحاتها القديمة . أما الجمل فيقال إنه كان معروفاً فى الصحارى المجاورة لمصر فى العهد الفرعونى ؛ ولكنه على كل حال لم

يستخدم فى مصر ذاتها إلا فى العهد الرومانى ، بل فى أواخره . ويقال إن الجمل لم يستخدم فى طرق إفريقية الصحراوية إلا فى القرن الرابع الميلادى وما بعده . وعلى كل حال فالجمل لايزال حيواناً غريباً بعض الشئ فى البيئة المصرية ، ولا تزال مصر بحاجة إلى أن تجدد ثروتها منه فى كل عام بما تجلبه من جمال الصحراء ، حتى يحتفظ النوع بقوته وحيويته .

وغير هـذه الحيوانات التى ذكرنا كثير . ولـكن فيما أتينا به ما يكفى لأن يدلل على أن الريف المصرى قد تغيرت ثروته الحيوانية تغيراً ظاهراً فى أعصر التاريخ ، فاحتفظ ببعض حيواناته القديمة وأهمها الحمار ؛ ولـكنه جدد ونوّع ؛ واختفت منه بعض الأنواع والسلالات على حين دخل بعضها الآخر إلى هذا المسرح الذى تداولت من فوقه أمم الحيوان .

كل هذا من مقومات الحياة والمدنية المادية فى الزراعة المصرية وما يتصل بها من نشاط فى استنبات النبات وتربية الحيوان ؛ وهو الجانب الذى تعمدنا تفصيله بعض الشئ فى هذا المقال نظراً لقلة ما هو معروف عنه بصفة عامة. ولا يتسع المجال الآن لأن نتتبع بعض الحرف والصناعات الأخرى التى قامت إلى جانب الزراعة أو تفرعت عنها . ومع ذلك فان ما ذكرناه عن الزراعة ينصرف إلى تلك الحرف الـكثيرة من حيث المحافظة على القديم وإضافة الجديد إليه .

فأما الجانب الآخر من حياة المصريين وحضارتهم ، وهو الجانب الثقافى ، فمعروف عنه الـكثير ؛ وقد سبق أن عالجناه فى مقال سابق[1] ، فيكفى أن نجتزئ الآن بما له صلة مباشرة بالموضوع . وقد يكفى أن نذكر أن هذا الجانب من حياة المصريين وحضارتهم لم يختلف عن الجانب المادى فى كثير ، من حيث إن المصريين احتفظوا ببعض عناصر ثقافتهم القديمة ، ولـكنهم أخذوا عن غيرهم من الأمم بمثل ما أعطوا وقدّموا للعالم الخارجى فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب . فقد تطورت لغة المصريين مثلا وكتابتهم أيام الفراعنة ، فظهرت الـكتابة الهيراتيقية والديموتيقية ثم القبطية ، واستخدمت الإغريقية فى بعض مدائن مصر لا سيما الإسكندرية ؛ حتى إذا ما جاء العـرب أخذ المصريون عنهم لغتهم التى يتكلمون ويكتبون . وكان المصريون الأقدمون

---

(١) الـكاتب المصرى عدد ٣ (ديسمبر ١٩٤٥) .

قبل ذلك قد أثروا بكتابتهم الهروغليفية أو ببعض عناصرها فى كتابة الفينيقيين عن طريق شبه جزيرة سينا ، وبذلك ساهموا فى نشأة الكتابات والأبجديات اللاحقة فى الشرق ثم الغرب .

وفى ميدان الدين كانت للمصريين الأقدمين معتقداتهم وعباداتهم القديمة التى نشأت كلها تقريباً فى أرض النيل ، وتأثرت بظروف البيئة المحلية . ولكنهم مع ذلك احتكوا بغيرهم فى مدرسة عين شمس أول الأمر ثم فى الإسكندرية فى عصر لاحق ، وأثر الفكر الدينى المصرى فى الفكر الإغريقى ثم المسيحى ؛ حتى إنه ليقال إن قصة مريم العذراء والمسيح عليه السلام كما تصورها المسيحية لتشبه من بعض الوجوه قصة إيزيس وابنها الإله حورس فى مصر القديمة ، وإن خروج المسيحية عن التوحيد الخالص وأخذها بفكرة الثالوث إلى جانب فكرة التوحيد ليذكرنا بما كان فى مصر القديمة من ثواليث بين الآلهة ، رغم سيادة إله معين على غيره من الآلهة . ولكن الشئ المهم على كل حال أن اتصال مصر بالفكر الدينى الشرقى فى العهد المسيحى مهد السبيل لأن تتقبل مصر أفكار الشرق الموحّد ، وتزاوج بينها وبين أفكارها هى ، على نحو أدعى إلى الاستقرار والدوام مما حدث أيام أخناتون فيلسوف مصر الموحّد فى العهد الفرعونى ؛ فقد تأثر ذلك الفيلسوف — فيما يرى بعض الباحثين على الأقل — بلون من ألوان الفكر الدينى الموحّد ، وحاول أن يفرضه على الفكر الدينى المصرى ، ولكنه لم يوفق ؛ لأن الأفكار الدينية التى نشأت فى مصر وفى البيئة المصرية كانت أقوى من أن تزعزعها استعارة من الخارج أو وحى جديد لا يمتّ إلى الفكر المصرى الأصيل بسبب قوى . أما المسيحية فكانت فى ثوبها الذى ظهرت به فى القرنين الثانى والثالث وما بعدهما خليطاً من الفكر الشرقى الصارم فى توحيده والفكر المصرى الإغريقى الذى يأخذ من الآراء والمعتقدات القديمة بطرف أو أطراف لذلك كان يسيراً على الفكر المصرى أن يتقبل الديانة الجديدة ، بل أن يتعصب لها ويدافع عنها ضد اضطهاد الرومان . . . وقد لا نغالى إذا قلنا إن توغل المسيحية فى مصر يمثل مرحلة انتقال ضرورية مبدت السبيل لما جاء بعدها ، وأنه لولا هذه المرحلة ما استطاع الإسلام ، وهو دين شرقى جديد صارم فى توحيده ، أن ينتشر فى مصر . ومع ذلك كله فان الإسلام لم يتقهقر فى أرض النيل دفعة واحدة ، وإنما دخل الناس فيه تدريجيا . ويبدو

أن الكنيسة القبطية بقيت قوية متماسكة حتى القرن الثالث عشر ، عندما اضمحلت وكثرت فيها المشاحنات الداخلية ، فدخل كثير ممن بقى من أتباعها فى الدين الجديد أفواجاً . وفضلاً عن ذلك كله فإن الإسلام عندما شمل مصر لم ينسخ كل ما قبله من عقائد وتقاليد تتصل بالعادات والعبادات ؛ وانما استمر كثير مما تعارف عليه المصريون منذ أيام الفراعنة كالعادات الجنائزية وصلات الأحياء بالأموات ، ثم العادات الاجتماعية فى الموالد والأفراح ، والصلات الشعبية والروابط القروية والأسرية وغير ذلك مما ينظِّم العرف والتقليد أحياناً كثيرة ، وينظم القانون فى بعض الأحايين .

وهكذا انتهى الأمر إلى ما نراه فى العهد الإسلامى من جمع بين الفكر القديم والفكر الحديث فى رباط ظاهره التناقض والمتناقضات ، ولكن باطنه ينطوى مع ذلك على كثير من التوافق والتكافل . ذلك أن الانتقال فى الفكر الدينى المصرى لم يكن مفاجئاً كما ذكرنا ، ولم يأت عن طريق الثورة الجامحة على القديم ؛ وإنما جاء عن طريق المزاوجة والتكافل بطريقة آلية بين هذا الجديد الذى أخذناه عن الخارج وذلك القديم الذى احتفظنا به عن تراثنا الخالد . وواضح أنه لا يجوز ولا يمكن ان يعتبر من الإنصاف العلمى فى كثير أو قليل أن نلتفت إلى القديم الذى احتفظنا به فنقول إن المصريين جامدون محافظون ، وأن نُعرض فى الوقت نفسه عن الجديد فلا نقول إنهم متطورون مجددون . فنحن أمة قد جمعنا بين القديم والجديد . وليس هذا التناقض الظاهر فى حياتنا الفكرية والروحية غير مظهر لا يمس الجوهر ؛ لأن جوهر الروح المصرى قادر على أن يجمع بين القديم والجديد فى غير حرج ؛ بل قادر على أن يجد غذاءه ويستمد لبانه من الاثنين . وترجع مقدرته هذه إلى أنه روح طويل العمر ، قد عاصر التاريخ كله ، فكانت له من تجاريبه التى توارثتها الأجيال ، تلك المقدرة النادرة التى امتازت بها مصر على كثير غيرها من أمم الأرض التى لم تتصل حياتها ولم يحفل تاريخها بدروس العِبَر وأحداث السنين .

ونستطيع أن نستطرد إلى جوانب أخرى من حياة المصريين فى غير اللغة والدين والعادات والتقاليد ، فنلاحظ احتفاظ مصر ببعض قديمها ، ونزعتها إلى التجديد فى الوقت نفسه ؛ وهو أمر ماثل فى كثير من مظاهر حياتها الحديثة بعد أن اتصلت بالغرب فى العصر الحديث . ولكن أمر هذا الاتصال معروف

بما لا يدع حاجة إلى إطالة . ويكفى أن نذكر أن مصر رغم ما أصابته فى نهضتها الحديثة من تغيير شمل كثيراً من جوانب الحياة مادية وثقافية ، فإن التغيير والتجديد فيها اتخذ صورة التطور المتئد والتحول الهادئ تارة ، واتخذ صورة الثورة العنيفة والتبدل السريع تارة أخرى . ولعلنا إن دققنا النظر وأنعمناه واجدين أن مصر كانت دائماً تعمد إلى الطريقة الأولى ، فتتهادى ولا تنفض القديم كله ، إذا مس التغيير عنصراً من عناصر المدنية والحضارة الأصيلة ، أى التى نشأت فى البيئة المصرية ، كتغيير وسائل الزراعة فى الحقل المصرى الصغير ، أو تغيير التقاليد والعادات الاجتماعية والروحية وغيرها من تراث مصر القديم ؛ فكل ما حدث فى هذا الميدان إنما كان إضافة من الجديد إلى القديم ، أو تهذيباً للقديم بما يزاوج بينه وبين الجديد فى صورة تحفظ من القديم روحه حيناً ومظهره حيناً آخر ، وتلائم بين الجديد وبين ما تقتضيه البيئة وظروف الحياة فى مصر . أما إذا مس التغيير والتجديد عنصراً من عناصر الحضارة أو الثقافة التى استعارتها مصر من الخارج فى فترة من فترات تاريخها الطويل ، فإن المصريين لا يجدون حرجاً فى أن يندفعوا فى طريق التغيير والاستبدال السريع . ومن آيات ذلك ، إن أردنا التمثيل ، ما أصاب المجتمع الحضرى فى مصر إبان عهد الأتراك من عادات كثيرة تتصل بالأسرة والحجاب بين النساء ، والقطيعة بين المرأة وبين أن تساهم فى الحياة والثقافة العامة ؛ فإننا ما لبثنا أن خرجنا على ذلك كله ونفضناه فى العهد الحديث . وكان خروج المرأة إلى الحياة العامة فى المدن المصرية ومساهمتها فى النهضة الحديثة ثورة ، أو هو أدنى إلى الثورة منه إلى التطور البطئ ؛ لأن الأمر لم يَعْدُ أن يكون استبدالا لعادة أجنبية بعادة أخرى دخيلة . كذلك الحال فيما أخذنا بسبيله من التجديد فى التعليم والتشريع على نسق أمم الغرب ؛ فإننا فى التعليم لم نبن على النظام الأزهرى الشرقى القديم ؛ وإنما أخذنا فى شئ من العنف بلون جديد من التعليم المدنى ؛ وترتبت على ذلك ثنائية غريبة فى تعليمنا القومى . وحتى الأزهر نفسه لم يأنف أن يأخذ بالأسلوب الجديد ، فداخله التجديد وغزته العلوم الحديثة فى عقر داره . أما فى التشريع فإننا لم نجد حرجاً فى أن نضيف إلى الشريعة التى أخذناها عن الإسلام قوانيننا الحديثة التى أخذناها عن الغرب ، فحلت هذه القوانين محل الشريعة فى أمورنا المدنية والجنائية ، وأخذنا بذلك كله فى يسر .

وسلكنا طريق الثنائية التشريعية فى غير ضيق ولا حرج . بل كذلك الحال أيضاً — إن أردنا مثالا ملموساً من الحياة العملية — فى لباس المصريين ؛ فمنذ عهد الإغريق والرومان خلع المصريون تدريجيا لباسهم المصرى التقليدى والذى يلائم بيئتهم ، واستبدلوا به ألوانا مختلفة من اللباس الفضفاض الذى تغير من عصر إلى عصر خلال العهد العربى والتركى ثم العهد الحديث . وما مرجع هذه الفوضى وتلك الثورات العنيفة فى لباس فئات الأمة المختلفة ، وانتقالها من زى معين إلى آخر فى ثورة وتبرم ، أو فيما يشبه ذلك ، إلا لأن هذه الأزياء جميعاً مستعارة ؛ فلا يجد المصرى حرجاً فى أن يثور ويبدل زيًّا بزى ، فى غير ما ضابط يجمع بين طبقات الأمة ويوحد المظهر بين فئاتها المتباينة . وليس أدل على أننا فى مصر لا نستنكف التغيير والاستعارة المتجددة فى هذه الأمور ، أو لا ننظر إليها نظرة الجد والاهتمام ، من أننا أمة تتباين بين أفرادها الأزياء وتختلط بصورة لافتة إلى أبعد الحدود ، ومع ذلك كله لا نكاد نهتم لما قد يترتب على هذا التباين أحياناً من مساس غير مباشر بمقومات وحدتنا القومية .

إلى هنا ونخرج بأننا إذا تحدثنا عن المصريين وطابعهم القومى والحضارى العام فإننا لا نستطيع فى يسر أن نقول عنهم إنهم أمة محافظة على القديم ؛ فمثل هذا الحكم لا يجوز أن يطلقه على علاّته غير من لا يتعمقون الأمور ؛ وهو إلى جانب ذلك حكم لا يشمل غير جانب من الحقيقة ؛ فاذا كان المصريون قد حافظوا على بعض تراثهم القديم ، فإنهم لم يقفوا جامدين من نزعات التجديد ، وإنما حفل تاريخهم الطويل بكثير من عناصر التقدم والتطور والابتكار والاستعارة ، وشمل ذلك حياتهم المادية والروحية جميعاً ، وحضارتهم المدنية والثقافية سواء بسواء . والذين يدرسون الأمم الحديثة ويتصدون لاستشفاف مصايرها والتعرف على أقدارها المستقبلة يشبهون الأمم بالأفراد ، فلكل أمة شخصية ذاتية ، وصفة قومية ، يعبر عنها الباحثون الآن بما يسمونه national character . ولن يكون من الإنصاف فى حق هذه الأمة العريقة أن نرميها بالجمود ، وما بها من جمود ؛ ولا أن نقول إنها محافظة إلى حد يقطع بينها وبين أن تساير سنّة التطور والتقدم والاجتهاد والتجديد . ولو أن مصر كانت جامدة فى تاريخها الحافل الطويل ماعاشت على الزمن ، بل لسبقتها الأيام واندثرت حياتها

ودالت أمتها كما دال غيرها من الأمم . ولئن كانت مصر قد عاشت كل هذه القرون الكثيرة ما ذلك إلا لأنها لم تتقاعد عن أن تأخذ باسباب التجديد . وغاية ما هناك أن هذا التجديد فى مصر لم يؤد دائماً إلى محو كل قديم . وما كان من الخير أن يمحق قديم صالح لمجرد قدمه ، ولا أن يستبدل به جديد غير صالح لمجرد أنه جديد . ولو أخذ المصريون بكل جديد صادفهم فى تاريخهم الطويل لتغيرت معالم حياتهم بما لا يدع مجالا للتعرف على شخصيتهم القومية ، تلك التى بقيت على الزمن وغالبت الأيام . وقد يكون من الخير لأبناء مصر ، وهم يترسمون خطاهم ويرسمون خططهم للمستقبل ، أن يعودوا إلى تاريخهم فيدرسوا فيه شخصية أمتهم المميزة ؛ وعندئذ يعلمون أنهم محافظون يجيدون المحافظة ، ومجددون يحسنون التجديد ؛ بل عندئذ يعلمون أن لشخصيتهم القومية مقومات أساسية نشأت فى مصر وتغذت بلبان بيئتها ؛ فلا سبيل إلى أن ننفضها فى عنف ، ولا إلى أن نثور عليها ثورة مصيرها إلى الإخفاق ؛ لأنها تغاير طبيعة الأشياء ؛ كما أن لتلك الشخصية مظاهر أخرى كثيرة جلها مستعار ، ويمكن أن نستبدل به غيره متى كان فى الاستبدال ما يفيد وينفع . ولا خوف من أن يندفع الشعب إلى مثل هذا التجديد اندفاعاً ، فهو آخذ به فى غير حرج ؛ لأنه شعب عرف فى تاريخه كيف يساير الزمن ، وكيف يجدد حياته ويغذى حضارته بما يبتكر أو بما يقتبس عن حضارات الآخرين فى الشرق أو فى الغرب .

وبعد ، فليس يضيرنا فى شئ أن يجمع شعبنا بين القديم والجديد ، وأن يجنح فى نهضته الحديثة إلى أن يتئد ويستمسك بالماضى فى أشياء ، وإلى أن يندفع ويجدد ويقتبس فى أشياء أخرى . فمن يدرى ! لعل هذه الخاصية العجيبة فى شعب مصر أن تكون هى سر الحياة ؛ أو لعلها أن تكون فى القليل دليل الحيوية واليقظة التى لا يلهيها غد عن أمس . بل من يدرينا ! فقد يجد أولئك الذين يقودون نهضتنا القومية فى دراسة هذه الخاصية العجيبة وتفهمها على وجهها الصحيح مفتاح النجاح لما يرسمون من خطط فى المستقبل .

سليمان حزين